استراتيجية التفكيك عند جاك دريدا
التفكيك "منهج نقدي أم مذهب فلسفي؟"

أ/ بوالطمين نوال
جامعة جيجل

مقدمة:

يعد التفكيك أهم استراتيجيات النقد ما بعد الحداثي، التي اختلفت رؤاها و مقولاتها عما كان عليه النقد الحداثي في مرحلة سابقة، متجاوزة حدود النصية والانغلاق و المركزية إلى إجراء فلسفي يمارسه الناقد بكسر هذا التمركز و الثبات و النظام، ويعيد النظر في تلك الآليات والمناهج التي حصرت النصوص و الخطابات في بوتقة العلاقات الداخلية التي تحد من إنتاجية الدلالة وتحرير سلطة الذات في بحثها اللامتناهي عن المعاني و الدلالات.و الحقيقة أنه من الصعب حصر هذه الرؤية في حدود مفهوم واضح ومقولات ثابتة و أصول فلسفية يسيرة الفهم والاستيعاب، لأن التفكيك في حد ذاته فلسفة.

ومما لاشك فيه أن خير من مثل هذه الاستراتيجية و كشف عما تخفيه الخطابات الفلسفية و النظم الفكرية التي كانت قارة منذ آلاف السنين إلى يومنا هذا هو الناقد الفرنسي "جاك دريدا" المؤسس الأكبر لها،هذا الأخير الذي عاش هوية متشظية(اصل غير موحد) ؛ جزائري المولد سنة 1930 يهودي الديانة فرنسي الفكر أي ولد و عاش قلق الهوية وهو ما ساعده على تشكيل مشروعه التفكيكي الذي سنحاول معا الحديث عن جذوره ومقولاته المتسمة بنوع من الغموض الفلسفي الذي دائما يناقض به التراث الغربي ،كذلك أهمية الموضوع في المقاربات المابعد حداثية التي تكشف عن التجاوز الحاصل على مستوى البنية المغلقة للنصوص مع المناهج النصية، و حتى المناهج النصانية التي فتحت أفق التأويل و إطلاق يد القارئ في النص لإنتاج الدلالة،غير أنها لم تكن سلطة مطلقة وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تتبع و ابراز ما تقول به هذه الاستراتيجية التي ادرجناها في مجموعة تساؤلات :ما التفكيك؟ ما المزاج الفلسفي و المعرفي الذي انبنت عليه هذه الاستراتيجية؟ ما هي أبرز مقولاتها؟ أسئلة و ابهامات كثيرة تدور في ذهن متلقيها لأول وهلة ،لذا سنحاول معالجتها وفق ما أتيح لنا من فهم لهذه القضية.

في مفهوم التفكيك:

من الصعب تحديد مفهوم واضح و استحضار تعريف قار لهذه المسألة أو لهذا الوجه الفكري الجديد في الفكر الغربي، لأن دريدا مؤسسها بنفسه يرفض تقديم تعريف للتفكيك، ففي كل مرة يُسأل عن التفكيك يتهرب من الإجابة و يكتفي بالإيماء فقط على نحو ما جاء في كتابه(الكتابة و الاختلاف)"ما الذي لايكون التفكيك؟ما التفكيك؟لا شيء"[1]، فديريدا يستخدم دائما صيغة النفي (لا، ماليس) في حديثه عن هذه الرؤية إن صح التعبير، وهنا يتبادر إلى أذهاننا التفكيك:هل هو منهج؟هل هي فلسفة؟هل هو نقد؟ هل هو نظرية؟ ما التفكيك؟

التفكيك في أصله ضد مفهوم التعريف، فالباحث بسام طقوس ينفي عن التفكيك صفة المنهج و النظرية بقوله: "ليس التفكيك منهجا"[2] ، لأنه لا يمكن حصره و تصنيفه في مجموعة إجراءات وآليات منهجية ، ذلك أن "هدف دريدا منع احتواء التفكيك أو تدجينه و بخاصة إذا أدركنا تأكيد مفردة التفكيك على الدلالة الإجرائية أو التقنية "[3] .كما أن التفكيك"ليس نظرية عن الأدب"[4] ،لأن النظرية تتطلب منظومة تصورات دقيقة ،كما أنها تتصف بالتعالي وهي الصفة التي يثور عليها التفكيك.كما ينفي الباحث يوسف وغليسي عن التفكيك صفة التحليل أو النقد بقوله: التفكيك ليس تحليلا"[5]، لأنه لا يسعى على الوصول إلى العنصر البسيط أثناء تحليل أي بناء، كما أن "التفكيك ليس نقدا"[6]،لأن النقد في صيغته النهائية هو الوصل إلى حكم يحدده الناقد الدارس وهو ما يرفضه التفكيك.

يمكن القول أن التفكيك استراتيجية نقدية تطبق في دراسة النصوص،لا يمكن أن نحدها في مفهوم وإلا بطُل ذلك الوعي الذي أراد تشكيله دريدا في قلب موازين الفكر الغربي الثابت.وكإجابة تقريبية فالتفكيك"استراتيجية في القراءة، قراءة الخطابات الفلسفية و الأدبية و النقدية من خلال التموضع داخل تلك الخطابات و تقوضها من داخلها،من خلال توجيه الأسئلة و طرحها عليها من الداخل"[7]، و منه يختزل هذا التعريف حدود هذا الفكر التفكيكي على العموم الذي يمثل حالة من حالات تدمير الحقيقة، المنطق، الثابت، النظام، هو ثورة على محدودية المعاني، هو خلخلة لنظم وخطابات فكرية فلسفية كانت قارة في الميثافيزيقا الغربية منذ تشكلها ماقبل أفلاطون إلى العصر الحديث. و التفكيك إذن قراءة جديدة و مختلفة للتراث الفلسفي الغربي(أفلاطون،سوسير،هوسرل...).

النشأة و التطور:

وفيما يتعلق بظروف نشأة التفكيك،فقد أحاطت بميلاده متغيرات وأحوال كشفت عن ذلك الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى،تغيرت فيها النظرة إلى الأشياء و الخطابات.و لعل ما يلخص لنا مرجعيات هذه القراءة التفكيكية هي تلك المعادلة التي بسطها الباحث يوسف وغليسي في إطار يسهل الالمام بالملابسات و العوامل التي ساهمت في نشأته وهي:"التفكيكية=اعتباطية العلامة اللغوية عند دي سوسير+شيء من الشك الفلسفي(نيتشه وهيدغر)+آلية القراءة الفاحصة(النقد الجديد)+أولوية اللغة على الدلالة(مدرسة يال)"[8] .وبتحليل هذه المعادلة نجد أن القصد من اعتباطية العلامة اللغوية عند دي سوسير أن دريدا ودعاة التفكيك في عمومهم استثمروا مقولة اللسانيات(الثنائيات الضدية)في تشكيل الوعي التفكيكي للميثافيزيقا و المركزية، أما الشق الثاني من المعادلة فهي عودة موجة الشك مع نيتشه،وتفكير هايدغر المبكر في هدم فلسفة الحضور من خلال سك مصطلح التدمير الذي ساعده في بلورة الكثير من الأمور المهمة لبناء هذه الفلسفة،أما آلية القراءة الفاحصة وأفكار الالتباس و التورية فهما مقولتان أساسيتان من مقولات النقد الجديد،وأخيرا مدرسة يال التي انطلق منها النقاد في بادئ التفكير النقدي.

اما فيما يخص نشأة التفكيك فيعود المهاد الحقيقي لنشأة التفكيك الى البيئة الفرنسية،غير أن الباحثون يجمعون على أن ميلادها الرسمي يعود إلى "تاريخ أكتوبر 1966 وهو تاريخ تنظيم جامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الامريكية لندوة اتخذت من اللغات النقدية وعلوم الانسان موضوعا لها،وقد شارك فيها نجوم المشهد النقدي العالمي المعاصر،رولان بارث ، تيزفيطان تودوروف، لوسيان غولدمان، جاك لاكان، جاك دريدا...و قد عدت هذه الندوة بمنزلة البيان التفكيكي الأول (...) وقد كان جاك دريدا نجم تلك الندوة التي شارك فيها بمداخلة حول 'البنية و العلامة و اللعب في خطاب العلوم الإنسانية'، وفي السنة الموالية 1967 أصدر ثلاثة كتب أساسية ،شكلت معالم مضيئة في مسار المشروع التفكيكي هي الكتابة والاختلاف، الصوت والظاهرة، في علم الكتابة ...،ثم أردفها عام 1972 بكتب لاحقة من نوع التشتيت،مواقف،هوامش الفلسفة عمقت مشروعه الفلسفي"[9]، وقد مثلت هذه المؤلفات والدراسات الفلسفية خيطا رابطا بين فرنسا و أمريكا.

كذلك من أعلامها الفرنسي رولان بارث الذي يأتي "في طليعة النقاد التفكيكيين،وإن عرفت آراؤه تقلبا واضحا على ضفاف مناهج عدة،وأفضل ما يمثل مرحلة بارث التفكيكية مقاله عن موت المؤلف عام 1968،وقد توجه في كتابه الكتابة في الدرجة الصفر عام 1953 نحو فك اغلال الكلمة لتنطلق حرة حتى تصل إلى درجة اللامعنى، وتناول في كتابه (S/Z) الذي صدر عام 1970،وهو عبارة عن دراسة لرواية قصيرة غير مشهورة ،وقد قسمها إلى 561 وحدة قرائية... وكان هذا الكتاب هو العمل الذي اشتهر به رولان بارث خارج فرنسا،أما في كتابه لذة النص عام 1973 فقد تحدث عن النص باعتباره تفكيكا للأسماء وفيه فرّق بين المتعة واللذة "[10]

و بانتشار أعمال دريدا من خلال مشروعه التفكيكي في الانتشار و الذيوع في أوساط أمريكا خصوصا الميادين الأكاديمية(الجامعة)،وخاصة مع "مجموعة ييل ،إذ مثلت كتابات بول دي مان مناصر التفكيك الأول الأرضية الصلبة التي انطلقت منها انقادات النقاد الجدد خاصة كتابه العمى والبصيرة 1971،الذي يرى فيه أن النقاد يصلون إلى البصيرة من خلال العمى النقدي ،بالإضافة الى كتابه أمثولات القراءة 1979،كما نجد هارولد بلوم و تأثره السريع بالتفكيك في كتابه قلق التأثير 1973،اما ميللر ناقد مدرسة جنيف،جعل اللعب باللغة طريقة في التعامل مع التفكيك،وركز على تفكيك القص من خلال كتابه القص والتكرار عام 1972" [11].وكل هؤلاء شكلت اسهاماتهم رصيدا هاما في بلورة مشروع التفكيك.

الجذور الفلسفية و الأصول المعرفية لاستراتيجية التفكيك:

لكل حركة أو لنقل لكل طيف من أطياف الفكر الغربي مناخ أو مزاج معرفي وفلسفي يستمد جذوره وأصوله التي يستند عليها في بناء مقولاته ومبادئه ، وكلنا يعرف أن العقل الأوروبي أو الغربي دائما يراجع ويسائل نفسه ، يصحح ويجدد تاريخه وفكره،فكان التفكيك أحد هذه المراجعات في المرحلة ما بعد البنيوية بزعامة "أهم فلاسفة أوروبا المعاصرين جاك دريدا إلى جانب سارتر وميرلوبونتي وميشيل فوكو و ألتوسير وجاك لاكان،و معظم فلسفات هؤلاء كانت تقوم بنقد التفكير الوثوقي ،وتعيد النظر في بناء مفهوم الحقيقة ،كما عملت على مراجعة مفهوم التاريخ ومركزية الوجود الذاتي ،وعلى العموم فجميعها أسهم في خلخلة ما يسمى بالمركزية الأوروبية المشيدة على الثقة الكاملة في القيم المثالية والعقل والعلم ،ولقد تزامن ظهور هذا الفكر المتمرد مع واقع جغرافي يحاول أن يتحسس وجوده بعيدا عن هذه المركزية التي تحكمت في العالم مدة طويلة

من الزمن ، وهو ما عمق شعور الغرب بأن قيمه التقليدية باتت موضع تساؤل من الداخل والخارج على حد سواء"[12]. نفهم من هذا الاقتباس أن اول ما قام عليه التفكيك هو تقويض المركز ونقضه ،تدمير الحقيقة ، الوثوقية ،النظام ،الثبات... وفي هذا القول كلمة مفتاحية بارزة وهي 'خلخلة المركزية الأوروبية ' او بالأحرى الغربية ؛أي الثورة على مجموع المقولات المر كزية الكبرى ولا سيما مقولة العقل ، لأن مرتكزات هذه الاستراتيجية تناقض مرتكزات العقل الغربي المتمثل في التمركزات التالية (العقلية، الصوتية، اللغوية، العرقية، القضيبية) ،ومنه فالتفكيك يسعى إلى نقد التمركز الغربي بكل تجلياته في الميثافيزيقا الغربية منذ تشكلها مع ما قبل أفلاطون و بلوغها الحد الأقصى مع دي سوسير .

فتاريخ هذه الميثافيزيقا المقدر بأكثر من ثلاثة آلاف عام ينبني على نسق من التراتبيات الهرمية ،التي يمكن القول عنها أنها معمار أو بناء يتخذ شكل ثنائيات تعارضية حدية (الذات/ الآخر ، الرجل/ المرأة ، الروح /الجسد، الكلام/ الكتابة ، الحضور /الغياب)،ومنه فالفكر الغربي دائما يركز على العنصر أو الطرف الأول من الثنائية على حساب الطرف الثاني الذي يراه ثانويا ومكملا ،بل عنصرا فاسدا ،إن التمثل الذاتي للمعنى هو ما يطلق عليه دريدا **التمركز العقلي**: Logocentrism، من الكلمة الإغريقية Logo (الكلام، العقل، المنطق، كلمة الله)، وهذا التمركز العقلي هو ما ترتبت عليه باقي التمركزات ،الذي يركّز دائما على الطرف الأول من الثنائيات و يحيل دائما إلى مفهوم إقصاء وتهميش الطرف الثاني، فمثلا أبرز ثنائية هي الكلام/الكتابة التي انبنى عليها تقريبا مشروع التفكيك؛ إذ ينظر العقل الغربي منذ اليونان إلى أهمية الكلمة المنطوقة على حساب الكلمة المكتوبة وهو ما يسمّى **بالتمركز الصوتي** عند دريدا، الذي تجلّى في ذلك إهمال الكتابة منذ أفلاطون الذي يعتبرها مفسدة وملوثة للمعنى إلى دي سوسير الذي همشها واشتغل على الكلام في دراساته اللسانية، والذي أهمل أنواعا أخرى للكتابة. هذا الإقصاء والتهميش منذ القديم أفرز ما يطلق عليه دريدا **التمركز العرقي**، الذي يكشف به أن العقل (الفكر) الغربي عرقي وإقصائي، وأنه أقصى الفكر والتراث اليهودي وتراث الحضارات الأخرى وأعلى من قيمة التراث الإغريقي خصوصا في تفضيل الكلام على الكتابة؛ ذلك أن الفكر الغربي من أفلاطون إلى دي سوسير مبني على الصوت في تراثه الإغريقي بينما التراث اليهودي مبني على الكتابة في علاقة اليهودي بنصه المكتوب التوراة. إلى آخر التمركزات وهو

التمركز القضيبي بتفضيل الغرب واتباعهم لآبائهم الفلاسفة وتمجيدهم واستبعادهم لفلاسفة الشعوب الأخرى ، ولدّ الإقصاء من جهة وولدّ نزعة التقديس التي ترفض نقد وخلخلة النظام الفلسفي، ومساءلة هؤلاء الفلاسفة (اليونانيين). وقد استثمار دريدا لهاته الأمور مع الفلسفات الغربية التالية:

- **الفلسفة المثالية (العقلية) هيجل وكانط:**

قامت هذه الفلسفة علىّ أن حقيقة الكون أفكار وصور عقلية، وبجعل المقولات العقلية شرطا للمعرفة عند كانط، وهيجل الذي كانت مثاليته مطلقة ،"فكل ما هو عقلي واقعي، وكل ما هو واقعي عقلي" [13] ،إذ يرى أن العقل عبر تطوره الخاص به يعبّر عن تطور الواقع،فقد قام دريدا بتقويض النسق الهيجلي ذلك أن هذا النسق لا يخلصنا من الميثافيزيقا التي يريد دريدا تفكيكها وهدمها ،لأنها أبقتنا في أحضان المثال والمطلق الذي يتصف بالثبات ،الذي ينبغي حسب دريدا الانفلات والخروج من عباءته فهو عنوان للرتابة والسكون بعينه الذي لابد من التحرر منه، ذلك أن " تفكيك العقل لدى دريدا لا يعني اللاعقل أو اللاعقلانية وإنما يعني إقامة فكر متطور، يقوم على محاولة رفض الميثافيزيقا الغربية (ميثافيزيقا الحضور) التي وسمت الفكر الغربي طويلا، والتي يشكل التعبير الأكثر صرامة عنه النظام الفلسفي ،لاسيما نظام هيجل في ميله إلى منهج الأولوية للمضمون المحدد بصورة كلية على أنه مجموع المدلولات... ومن هنا نفهم أن منهج التفكيك انفتح على الأسئلة الملقاة على العقل لكشف تناقض الميثافيزيقا الغربية وهدمها هدما ممنهجا ،قصد تفكيك الفكر النقدي للتراث الفلسفي المؤسس ورغبته في طرح سيطرة المفهوم والمفهمة للنقاش" [14]

إذن نفهم من هذا الكلام أن دريدا استخدم بعض الحجج المثالية في تفكير هيجل، واستثمر مفاهيمه "ليكشف عن الطابع المتناقض الشكاك لهذه الحجج والمفاهيم ويطور ما يسميه إستراتيجية عامة فلسفية لتفكيكيته" [15]، كذلك عارض دريدا ما جاء به كانط في حديثه عن الجمال والفن، "حيث تتلخص الأطروحة الكانطية في أن الجمال الطبيعي والفن يثيران الإعجاب من دون مفهوم إذن فكل خلق جمالي يتجاوز التصور المفهومي، لكونه لا يشير إلى شيء محدد لكون علاقاته بالفكر المفهومي يتحدد موقعها على مستوى الاستذكار، أو كما يقول السيميائيون على مستوى الدلالة الإيحائية، وخلافا لكانط الذي كان يشدد على الطابع الأصلي للجمال

الطبيعي، وأنه يثير الإعجاب دون مفهوم يسعى هيجل للبرهان على تفوق الجمال الفني ويتكلم على الطابع الناقص للجمال الطبيعي، ويعتقد على غرار العقلانيين بإمكانية علم الجمال، كما يرى أن تحديدا مفهوميا للفن والطبيعة أمر ممكن ، وأن العمل الفني الفردي، يظهر كشيء في متناول التحليل الفلسفي" [16]

ومنه فقد وقف دريدا ضدّ طروحات هيجل وكانط والعقلانيين رافضا إخضاع فكرة الجمال ومفهوم الفن للوغومركزية ما سواء نفسية أم بنيوية ام عرقية... ،وبالتالي كشف عن جميع التناقضات الموجودة في الميثافيزيقا، مقوّضا إياها خصوصا عندما رسم العقل الهيجلي أو الكانطي لنفسه ذلك الصنم المقدّس الذي يسير وراءه جلّ الفلاسفة وهو بالذات ما أراد دريدا تفكيكه من خلال مشروعه.

- **الفلسفة الفينومينولوجية (هوسرل):**

أفاد دريدا كثيرا من فلسفة هوسرل الظاهرية في القراءة وإنتاج المعنى، من خلال تلك الأفكار التي أرساها هوسرل عن الذات في وعيها بالعالم ،هذه الفلسفة التي ثارت هي الأخرى على صنم الميثافيزيقا الغربية (فلسفة الحضور) ؛ فلقد وظّف دريدا جهازا مفاهميا فينومينولوجيا كالأنا الخالص، القصدية، وغيرها من المصطلحات ... ذلك أن "الفلسفة الظواهرية في رؤيتها النقدية لاحظت أن القراءة تفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي"[17] ، بمعنى أن أي قراءة تكون بإطلاق يد القارئ،؛ أي تمنح له تلك الحرية المطلقة، هذه الأخيرة التي يتحكم فيها وعي القارئ نفسه، الذي يحدد الحقيقة النصية والمعنى النصي القابل للنقض والتقويض وهو ما يسميه دريدا إساءة القراءة وهو لا يقصد بها القراءة السيئة أو الخاطئة بمفهومها المعياري ، وإنما يقصد بها القراءة التي تكون دائما في انتظار ما يقوضها لتسمح بقيام قراءات أخرى على أنقاضها هي القراءة المنفتحة التي تسمح بتعدد القراءات والدلالات بعد تقويضها فهي قراءة صحيحة بنظره.وكل هذا استنادا لعدم وجود مبدأ إحالة أو مرجعية.

ما لفت انتباه دريدا في فلسفة هوسرل ونقده للمثافيزيقا ،هي فكرة العلامة التي يرى هوسرل إلى أنها تحيل إلى دلالتين: "الأولى: تعبيرية ذات دلالة تواصلية (اللغة الإبلاغية) والثانية: اشارية وهي دلالات يمررها القارئ من خلال وعيه وثقافته الذكية" [18]، الدلالة الأولى لم يعرها دريدا اهتمامه، على عكس الثانية التي اتخذها وسيلة يثبت بها مقولة التفكيك، وهي أن النص

حقيقة يبلغ بها رسالة القارئ. هذه الرسالة التي هي نتيجة لتفاعل النص والقارئ معا، هذا الأخير الذي يعكس وعيه في النص، فتنفجر الدلالات وتتعدد المعاني والمدلولات والتأويلات وهو مكمن الإبداع عند التفكيكيين. كما أن دريدا "وفي إطار تفكيره في اللامفكر فيه ضمن الفلسفة والمسكوت عنه ضمن الميثافيزيقا ،قد وضح نوعية العلاقة القائمة دوما بين الحضور(الوعي) والصوت، وهي علاقة لم يتفطن لها حتى هوسرل نفسه، حيث لا يتأسس امتياز الحضور كوعي إلا بواسطة سمو الصوت، إنها بديهية لم تحظ أبدا باهتمام الفينولوجيا "[19].

إن هذا الالتفات المسبق من قبل دريدا لتلك العلاقة المخبأة والمخفية بين الحضور والصوت التي غفل عنها هوسرل هي مرتكز تفكير تأسيسي قام عليه مشروعه التفكيكي الذي يعمل على اشتغال الطرفين معا، ولا تكون أفضلية أو أسبقية لطرف على آخر.

ومع كل هذا لم يمنع التقاطع بين الفلسفة التفكيكية والفلسفة الظاهراتية خاصة في النقطتين الهامتين:

1. نقد الميثافيزيقا وبالضرورة رفض التمركز.
2. مقولة القارئ الذي يساهم في تفجير دائما عدد لا نهائي من الدلالات. وهي استثمار فعلي لنظريات القراءة و التلقي .

- **الفلسفة الوجودية: (نيتشه، سارتر، هيدغر)**

- نيتشه (مبدأ الشك):

تأثر دريدا أيضا بالفيلسوف الألماني نيتشه من خلال من خلال عودة مبدأ الشك ،الذي قامت عليه فلسفة نيتشه معتمدة على عدم التسليم بأي مسلمة والتشكيك في الحقائق التي أنشأتها ميثافيزيقا الغرب، فنيتشه رفض الأفلاطونية والميثافيزيقا، ودعا إلى تبني قيم جديدة بعيدا عن الكانطية والهيجلية، ورفض مبدأ إحالة ومرجعية معينة "فأعلن مقولة موت الإله التي لاقت تهليلا وتكبيرا في الأوساط الغربية، فهذه المقولة تعني زحزحة الغيبيات والميثافيزيقيات بعيدا؛ لتفسح الطريق أمام ظهور الإنسان، فالحقيقة هي ما يستطيعه الإنسان، وما يمكن أن تكون في متناوله، ما عدا ذلك فهو ميت. وهذا المفهوم يعني صياغة جديدة للمذهب الإنساني الذي تأسست عليه الحضارة الأوروبية منذ نشأتها في عصر النهضة "[20] ؛ موت الإله هنا يعني موت الغيبيات، موت الميثافيزيقيات، موت المسلمات، وتأسس مقولة الإنسان (أي الحرية المطلقة) التي تكون عن طريق

تحرير الأفكار من تلك التقاليد المحدودة للمفاهيم والتصورات الممتدة في الزمن الماضي ،وقد أفاد النقاد من هذه المقولة وأعلنوا عن مقولة موت المؤلف (رولان بارث) الذي نادا بموت المؤلف وإحياء القارئ، مبينا أن المؤلف يمثل الذات الأولى لحظة إنشاء النص لما يبتعد وينعزل المؤلف عنه يموت هذا النص، ليحيا من جديد لما يتاح للقارئ، ويكتمل بناؤه عندما تتعدد القراءات، التي تقوّض مرجعية ما (المؤلف) ،وهذا التعدد في القراءات هو ما يشكل حقيقة النص، إذ أن كل واحد منها يساهم في تشكلّ ماهية هذا النص، من هذا المنطلق استثمرت التفكيكية مقولة موت الإله النيتشوية "بتقديمها معالجات متطرفة الشكوك والصرامة فيما يخص الوعي الإنساني" [21]، هذا التطرف هو ماثل في طرحهم لقضية موت المؤلف.

استفاد دريدا أيضا من قراءة نيتشه لأفكار هيجل عن المعرفة التاريخية ،"فمعنى التاريخ وتاريخ المعنى مرتبطان بعضهم البعض عن توثيق الحقيقة الذاتية التي تملك جذورا قوية في الفكر الغربي، ثم إن إيمان هيجل بوحدة وجود المنهجية التاريخانية هي النقطة التي حددها دريدا باعتبارها مصدرا للأصول والحضور الذاتي، وقد تعامل هيجل مع التاريخ والوعي باعتبارهما متقاربين باتجاه مرحلة الاستبصار القوي والفهم التام ودريدا هو الآخر مثل نيتشه من قبل، نجده حرص على تفكيك هذه المعرفة المثالية والمفاهيم المنهجية الخاصة بها، ومن أجل ذلك واجه تحديا قويا للتفسير التاريخي "[22].

عمد دريدا أيضا على تفكيك المفاهيم المتعلقة بمعنى التاريخ وتاريخ المعنى الذي يرى أن هيجل في تعامله مع التاريخ والوعي اعتبرهما مصدرا للجوهر والأصل الذاتي وهو بالذات ما عالجه نيتشه خصوصا بنقده وتشكيكه في هذه المعرفة المثالية لكن هذا لا ينفي التباين الواضح في معالجة التاريخ بينهما.

التفت نيتشه أيضا إلى مفهوم التناص الذي يشير إلى أخذ كل فلسفة من الفلسفات عن بعضها، وبالتالي "تتحول لغتها إلى لغة رمزية تحيل إلى دلالات ومعان واحدة موضوعة سلفا ومعروفة لدى الجميع، لأن اللغة الرمزية في نظر نيتشه خاضعة في دلالاتها لنظام الحقيقة، هذا النظام قائم على النسبية (أي المعنى الحاصل هو الآخر نسبي وغير مطلق كونه يمثل النقطة التي يسعى إليها القارئ، وهي الحقيقة التي تظل أمرا نسبيا). هذا ما اختلف فيه فكر نيتشه ودريدا. ذلك أن الفلسفة بنظر التفكيكيين منذ أفلاطون إلى هيجل هي فلسفة حضور، ومعنى هذا أن

الفكر لا يعترف إلا بما هو موجود في الوعي، وهذا يعني أن الإنسان هو مركز الكون " [23]،وهو ما ترفضه التفكيكية وتسعى إلى تقويضه (المركز).

هذه الفكرة الأخيرة هي ما دعت إليه الفلسفة الوجودية خصوصا (قيمة الحرية) الحرية المطلقة ،هذا المفهوم الذي يتنافى مع الثبات والنظام والمركز، فيرفض تلك الميثافيزيقا الغربية ويقوّض النسق ويدعو إلى كسر المرجعيات والتخلص من رتابة وسكون النظام التقليدي الثابت في العالم "فهي (الوجودية) حركة تغيير تمس جوهر الكون في علاقته بالإنسان، فهو يبدل الإنسان من تغير بالفعل إلى صانع لكل شيء فيها، هذه الشطحات الوجودية هي نفسها الشطحات التي قامت عليها إستراتيجية التفكيك " [24]

- وكما نعلم كلنا أن **سارتر** أبو الوجودية، رفض كل القيم السائدة وأبقى على قيمة واحدة فقط هي قيمة الحرية، هذه الحرية المطلقة التي استثمرها المشروع التفكيكي بمنح القارئ والذات مطلق الحرية في إنتاج المعاني والدلالات ،من خلال تفكيك الخطابات وقراءة النصوص وتعرية المخفي والمضمر الذي طمر لآلاف السنين (القراءة هنا هي قراءة حوارية تفاعلية).
- بالإضافة إلى قيمة الحرية تظهر في هذا السياق أيضا وجودية سارتر من خلال فكر أو فلسفة العدمية والعبثية (خصوصا مفهوم بارث للقراءة الذي ليس له مفهوم ثابت) – فكرة موت المؤلف – فقد ثارت هي الأخرى على المركز الغربي ونادت "بالتفرد والتميز ،فكل شخص يبني واقعه حسب رؤيته الخاصة ثم إن إيمان ديريدا بعبثية هذا العالم وأنه مؤسس على الفوضى وحالات من انعدام التوازن أن يجد الإنسان نفسه محاصرا بهالة من الأوهام التي تبعده كلية عن الحقيقة. ومن هنا يبدأ الشك في كل القيم، فكيف لوعي الإنسان لهذه الحقيقة المرة أن يواصل وهو يشك في كل ما حوله، وينتهي تفكير دريدا في هذا السياق إلى نوع من اللامعنى وعبثية الأشياء وعدم النظام "[25]. وهذا التفكير في الحقيقة يشير دائما إلى الفكرة الأساسية التي قامت عليها التفكيكية وهي الثورة على القيم القديمة والفاسدة التي لابدّ من تدميرها وإقامة بديل لها.

- **هايدغر:**

لطالما شغلت بحوث هايدغر اهتمام دريدا التي استفاد منها في تأسيس هذه الإستراتيجية من جانب، وانقلب عليها في ممارسة التفكيكية من جانب آخر، وعلى العموم فمشروع دريدا التفكيكي يعدّ "استمرار للفكر الذي بدأ مع نيتشه واستمر مع هايدغر ،الذي بدوره يرفض تلك القيم التقليدية التي سادت في الفكر الغربي ردحا من الزمن، بالتبرؤ الجذري من النزعة الأفلاطونية، أي من عتاد الفروق الفلسفية التي ورثها الغرب عن أفلاطون وهيمنت على الفكر الأوروبي بكامله "[26]

لقد ساهم فكر هايدغر كثيرا في تشكيل ووعي دريدا منذ الصغر، إذ استخدم دريدا في بداياته كلمة التدمير الهايدغرية في كتابه De la Gramatologie (عن الغراماثولوجيا)، وهي أحد أشكال التداخل بين الفلسفتين فهو مدين لهايدغر بتعبيد طريق الكشف عن الغائب والهامشي في الميتافيزيقا الغربية والمضمر منذ آلاف السنين حيث يقول: "إن ديني لهايدغر هو من الكبر، حيث أنه سيصعب أن نقوم هنا بجرده والتحدث عنه بمفردات تقييمية أو كمية، أوجز المسألة بالقول إنه هو من قرع نواقيس نهاية الميثافيزيقا، وعلمنا أن نسلك معها سلوكا استراتيجيا، يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل؛ أي أن نقطع شوطا مع الميثافيزيقا، وأن نطرح عليها أسئلة تظهر أمامنا من تلقاء نفسها تعجز عن الإجابة وتفصح عن تناقضها الجواني"[27] ؛ وفي توضيحنا لفلسفة هايدغر أكثر هو أن هذا الفيلسوف قد نعا النزعة الأفلاطونية (بالميثافيزيقا) وعرّف هذه الأخيرة بأنها "قدر الغرب (...) فكل الفلسفات وكل الميثافزيقا بما فيها خصمها أي (الوضعية)، تتحدث لغة أفلاطون ،حتى نيتشه اعتبر هايدغر ميثافيزيقيا وهو الميثافيزيقي الأخير – ميثافيزيقي إرادة القوة – فهو الفيلسوف الذي يقلب التعارض الأفلاطوني بين الوجود والصيرورة، بجعله الصيرورة من حيث هي شكل من سيلان القوة اللاانهائي من نقطة إلى نقطة طرفا أولا "[28]

يعد التمركز الغربي النواة الصلبة للميثافيزيقا، غدتها فلسفة الحضور إذ "ما يطلق عليه دريدا ميثافيزيقا الحضور يطلق عليه هايدغر الميثافيزيقا أو أنطولوجيا اللاهوت، النزعة الأفلاطونية "[29]، والعقل الغربي يتعامل مع الحضور كوعي، وكل ما هو ماثل أمام الوعي يعتقده مماثلا. فالفكر الغربي عندما انطلق في التفكير في مسائل أنطولوجية كالوجود ومعناه، انطلق من افتراض الوجود

كحضور يستبعد الغياب ؛ أي كل ما هو موجود ماثل أمام الوعي في اللحظة الآنية هو حاضر وما هو غير موجود فهو غائب يقوم الحضور في تعارض مع الغياب.

انتقد دريدا صيغة الوجود كحضور عند هايدغر سيرا على خطاه ،حيث تحدث عن "نقد ميتافيزيقا الحضور ونقد التمثيل والتراث الأنطوتيولوجي واختتام حقبة الأنطولوجيا التي أثارها هايدغر وجعل هدفه تجاوز الميتافيزيقا، بعد أن اتهمها بأنها نسيان للوجود لأنها تهتم بالموجود وليس الوجود نفسه "[30]

فقد كشف هايدغر عن بعض معاني الوجود التي غيبتها الميتافيزيقا خاصة في التراث الإغريقي فقد قام باستنطاق مفاهيم يونانية قديمة إذ كشف أن Dassin الوجود أو الحجاب يعني الإبانة والتخفي في نفس الوقت، فنجده يتحدث عن الوجود كانسحاب وحضور في نفس الوقت. وانطلاقا من هذه الفكرة "يعيد دريدا ادعاء ما سبق أن ادعاه هايدغر، من أن هذه الميتافيزيقا منتشرة في الثقافة الغربية انتشارا واسعا ؛فكلاهما يرى القوة التي تؤثر بها التعارضات الثنائية التقليدية في كل مجالات الحياة والفكر فتلوثها، بما فيها الأدب ونقد الأدب، كما يتفق دريدا مع هايدغر اتفاقا تاما حول مهمة المفكر من حيث اضطلاع بعبء التحرر من هذه التعارضات بل ومن أشكال الحياة الفكرية والثقافية التي شيدتها هذه التعارضات، غيرّ أن دريدا يعتقد أن هايدغر لم ينجح في قيامه بهذا التحرر"[31]، نفهم من هذا الكلام أن دريدا قد استفاد من نقد هايدغر لفلسفة الحضور في الميتافيزيقا لكنه تجاوزه، لأن هذا الأخير وهو يحاول تقويض هذه الميتافيزيقا استخدم جهازا ومقولات ميتافيزيقية هو الآخر (كمفهوم الحضور، قرب الظهور، الأصل، الوجود ،مقولات الجوهر ...) ،كما أن خطابه تسيطر عليه لوغومركزية (أو مركزية الصوت) ؛أي سيطرة الكلام الذي يضمن حضور المعنى وإقصاء الكتابة. حيث يقول دريدا: "أما بالنسبة لنقد هايدغر فهذا ما كنت أقوم به في الواقع منذ البداية، ففي جوانب كثيرة من عمله وجدته ما يزال حبيس الرؤية الميتافيزيقية ، هناك لديه أولا استمرار التمركز اللوغوس أو العقل" [32]

ولكي يؤسس دريدا فعليا لمشروعه، صنع لنفسه جهازا فلسفيا ليفكك به فلسفة الحضور الميتافيزيقية ،وهذه المصطلحات التي صكها لنفسه من مثل: الأثر الاختلاف، الحضور والغياب، الكتابة الأصلية، اللعب، التناص، إساءة القراءة...كلها تشتغل جنبا إلى جنب مع بعضها من

أجل خلخلة تلك النظم الفكرية وزعزعة الخطابات الفلسفية التي ظلت تشتغل برتابة وسكون وكمؤشر للرجعية في تاريخ الفكر .

- **فلسفة التحليل النفسي:**

فرويد

تأثر دريدا كثيرا بالجهاز الاصطلاحي والمفاهيمي لنظرية فرويد في التحليل النفسي، وتعامل معها بحذر شديد من منوال (الكبت، الحلم، الهلوسة...) ذلك أن "التحليل النفسي لا يحتفظ بأي امتياز أو سلطة (أي مركز) اللهم بسلطة وهمية من أجل فرض شرعيته ، كما أن فرويد تساءل عن الرغبات التي استطاعت التمركز داخل الكتابة، لكي تصبح البيانات والدلائل الفلسفية والعلمية. حينما يتعلق الأمر بالكتابة موسومة بإرهاق عاطفي وأخلاقي"[33] ، و لتوضيح أكثر لهذا الكلام "يرى دريدا أن لجوء فرويد إلى نماذج من الكتابة وليس من الكلام في محاولة وصف عمليات العقل لم يكن من باب الصدفة، إذ استعمل فرويد نماذج ميكانيكية في مشرعه بسيكولوجيا علمية. ولكن سرعان ما وضعها جانبا، ومع تحوله من النماذج الشرحية العصبية إلى النماذج العقلية بدأ يستعمل أكثر فأكثر صورا مجازية لميكانيزمات بصرية، وفي (تفسير الأحلام) كتابه الذي صدر 1900 ، انتهى إلى أنه من الملائم أكثر أن يشبه الأحلام بنظام الكتابة وليس بالكلام، ولكي يعبر عن العلاقات المنطق زمنية الغريبة في الأحلام استعمل فرويد باستمرار الكتابة الأبجدية والكتابات غير الصوتية (الهيروعلمية والصور والمخططات) بصفة عامة وأكدّ أن رموز الأحلام غالبا ما يكون لها أكثر من معنى واحد" [34]، فلقد اعتمد فرويد على التفسير في تحليله النفسي الطبي للشعور و اللاشعور ، وهذه الفلسفة لفتت انتباه دريدا من حيث اعتبارها منهجا يستعمل في الكشف عن أغوار النص وما يضمره. وعلى الرغم من تداخل فلسفة دريدا وفلسفة فرويد نوعا ما في إرساء إستراتيجية كل منهما إلا أن هناك اختلاف بينهما في مقولة الأثر، هذا الأخير الذي "يعني عند فرويد الأصل وهو حضور، وهو عند دريدا ليس حضورا ولكنه ظل حضورا يتصدع ويتحرك وليس له مكان لأنه يربطه بالذاكرة الوراثية على وجه التحديد "[35]، وهو ما اختلف في مفهمته الاثنين.

جاك لاكان:

لقد ساهم جاك لاكان هو الآخر في بلورة هذه الرؤية ومن خلال تبسيطه لنصوص فرويدا التي يرى فيه دريدا تبسيطا مبالغا فيه "ففي التحليل اللاكاني تسطع الحقيقة (الكلمة Logos) بانتظام ككلام أو صوت، ويبقى التحليل النفسي (علاجا بالكلام) يتركز على الحقيقة الملفوظة أو المصوتة، كما يحذرنا دريدا أننا عندما نرفض أسبقية أو أفضلية ما ،يجب أن لا نرضي رغبتنا في التسامي (أي الخروج من قبضة هذا التقابل) بإعطاء الأفضلية للدال (أي الكلمة على المعنى) ويرى أن ذلك هو بالضبط ما يفعله لاكان "[36] ،فجاك لاكان مزج بين التحليل النفسي وبين التحليل الالسني من خلال انزياح الدال عن المدلول؛ بإدخاله البعد الرمزي للغة.

- **المزاج اللساني للتفكيكية (البنيوية):**

فرض الفكر التقابلي الغربي بين الفكر والحس وبين الروح والجسد بين المادة والجوهر قالبا، استمر على طول تاريخ الفلسفة الغربية "مورثا عبئه للألسنية الحديثة التي تحدث التقابل بين المعنى والكلمة، ويأخذ التقابل بين الكلام والكتابة مكانه داخل هذا الاطار وتبعا لنفس النمط "[37]، وبداية مع استثمار التفكيك من لسانيات دي سوسير الذي كان منصبا على العلامة وتحقيق المعنى، انطلاقا من اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول وإلغاء التطابق بين الشيء واسمه هذا التصور هو في نظر التفكيكين، "رفض للنمذجة والمركزية من طرف سوسير، إذ أصبح القارئ يستقبل الكلمة على أنها كم مطلق مصحوب بكل الموحيات المطلقة (موسوعية) "[38]

إن اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول هي ما تمسك به دعاة التفكيك وذلك بتحقيق مقولة تعدد المعنى ولانهاية الدلالة عن طريق ما يسمى بالمراوغة الحرة أو بطريقة اللعب الحر.

لقد استعار دريدا من دي سوسير الثنائيات الضدية التي قوبلت عند التفكيكين بمقولة الاختلاف من منطلق زعزعة تلك التقابلات الثنائية وتقويضها ،ويعني الاختلاف(التأجيل) وتحقيق الدلالة عن طريق العب الحر ولانهائية المعنى. هذا الأخير الذي يتشكل عند دي سوسير ومن جاء بعده من البنيويين من خلال الكلمة وضدها وبالتالي تتحقق الدلالة، على عكس دعاة التفكيك الذي يبقى المعنى عندهم دائما في حالة إرجاء. "وينتقد دريدا فكرة الدال عند دي سوسير، إذ يرى أن المفهوم التقليدي للدال والمدلول يرسخ تبجيل الكلام بصفته ضدا ومقابلا للغة المكتوبة، حيث يصبح الصوت صورة مجازية للحقيقة والأصالة ، ومنبعا للكلام الحي الحاضر ذاتيا بصفته

ضدا ومتقابلا لتجليات الكتابة الثانوية الخاملة، ويتم تخسيس الكتابة بصفة منتظمة كخطر على النظرة التقليدية التي تربط الحقيقة بالحضور الذاتي ،ونجد كبت الكتابة راسخا في المنهجية التي يقترحها دي سوسير كما تَبيّنها أيضا من خلال رفضه دراسة أي شكل من الكتابة الألسنية عدا الكتابة الصوتية/الأبجدية في الثقافة الغربية" [39]، فدريدا هنا يكشف عن ذلك التحيز الفلسفي الغربي الراسخ الذي بيّن أن دي سوسير كان عرقيا في تعامله القليل مع الكتابة، حيث ركز على الكتابة الحرفية (الصوتية) وأهمل أشكال أخرى من الكتابة عند الشعوب الأخرى، كالكتابة الصينية واليابانية والهيروغليفية عند المصريين.

ونفس الفكرة مع جون جاك روسو وليفي ستراوس، فأما جون جاك روسو فيعتقد أن الكلام هو الحالة الطبيعية للغة أما الكتابة "فهي بشكل ما مشتقة يشوبها الخبل، ويبيّن دريدا عن طريق تحليل معمق لكتابات روسو وخاصة منها بحث في أصل اللغات ،أن روسو يناقض نفسه إلى درجة أنه عوض أن يثبت أن الكلام أصل اللغة، وأن الكتابة زائدة متطفلة، نجد أن كتاباته تؤكد على أسبقية الكتابة، أو بمعنى آخر يعترف نص روسو بما يجهد روسو نفسه في نفيه ،أي أن النص لا يستطيع أن يعني ما يقول أو بالمعنى الحرفي، أن يقبل ما يعني"[40] أما الكتابة عند ليفي ستراوس فيعتبرها هو الآخر مكملا للكلام "ووسيلة خارجية حيث يصورها كوصول ثقافي"[41]

إذن نفس المقولة التي يريد دريدا إثباتها في كل مرة وهي عدم إقصاء الطرف الثاني من المعادلة وعدم اعتباره مكملا، بل هو الآخر يشتغل جنبا إلى جنب مع الطرف الآخر بعيدا عن المركزية والثبات والتقابل الثنائي لطرف على حساب آخر.وبتوضيح اكثر شمولية فالتفكيك حسب دريدا "انقاذ الحداثة من الانغلاق الذي نادت به البنيوية"[42]

هذه الانتقادات هي انتقاداته للبنيويين بصفة عامة ،"لعدم وضعهم تصوراتهم الثنائية المتقابلة تحت الشطب؛ أي أنهم لم يضعوا هذه التقابلات الثنائية موضع السؤال والنقد. ويقصد دريدا بفكرة تحت الشطب حالة الالتباس التي تتسم بها الكلمة المشطوبة محذرة القارئ من مغبة الأخذ بمظهر الكلمة أو قيمتها السطحية ،حيث أن علامة تحت الشطب تعترف بعدم ملائمة الكلمة المستعملة _أي وضعيتها المؤقتة جدا_ وفي الوقت نفسه بضرورة الفكرة واستحالة العمل بدونها وهو ما يعمل به دريدا وتشكيكه في اللغة الميثافيزيقية ، ولكنه يقبل بضرورة العمل في إطار تلك اللغة "[43]، ، وهي فكرة أخرى أساسية رسمت مشروع التفكيك الدريدي .

مقولات التفكيك:

ارتكز التفكيك على مجموعة من المقولات شكلت جهازا اصطلاحيا يشتغل ضمن إستراتيجيته، ولعل أول هذه المرتكزات:

1 – الاختلاف: Différance

تعد مقولة الاختلاف إحدى المرتكزات الأساسية للتفكيك، صاغ دريدا مفهومه في كتابه الكلام والظاهرة ،واستناد الكشف الدلالة المعجمية، فمصطلح الاختلاف يدل على عدم التشابه والمغايرة لكن و"ببراعة لغوية (معجمية) ومعرفية كبيرة ولدّ جاك دريدا هذا المصطلح المركزي في فكرة التفكيكي بعدما عمد إلى الفعل الفرنسي differer ليستثمر صيغتيه في القاموس الفرنسي: الصيغة اللازمة التي تدل على الشيء المغاير المختلف (dissem blable) والصيغة المتعدية التي تدل على إرجاء أو تأجيل أمر ما إلى وقت آخر (remettre à un autre temps) مشتقا من مصدر الاختلاف différance من الصيغة الأولى ذات الدلالة المكانية أساسا، أما الصيغة الثانية ذات الدلالة الزمنية فقد اشتق منها مصدرا جديدا لا عهد للغة الفرنسية به هو الإرجاءو التأجيل أو الاخلاف (différance)"[44]

ويوضح رامان سلدن أكثر بقوله "إن الاختلاف مفهوم مكاني تنبثق فيه العلامة من نسق الاختلافات التي تتوزع داخل النسق، أما الإرجاء مفهوم زمني تفرد فيه الدوال إرجاء لا نهائيا للحضور"[45]

يرى دريدا أن أي خطاب أو أي نص يكون تيارا غير متناه من الدلالات، وتوالد المعاني لا يعرف الاستقرار والثبات، مما يبقيها مؤجلة ضمن نظام الاختلاف، فهي حركة حرة غير مقيدة لا تتوقع نهاية محددة لها تقوم على تلاشي المعاني وتعددها الناتج عن التشتيت والتقويض، وفكرة الاختلاف هذه استوحاها دريدا من الألسني دي سوسير الذي "يرى أن العلامات لا تدل بذاتها وإنما باختلافها عن غيرها (...) ثم ذهب بالفكرة مذهبا بعيدا متخذا منها عنوانا مناهضا للمعنى"[46] ، فدي سوسير يرى أن للدال معنى واحد على الرغم من تعدده، وهذا ما يسمى بالاختلاف ضمن الوحدة (أي التعدد الدلالي ضمن الجذر الواحد)، في حين أن دريدا يشتغل على المعنى المختلف حيث تنفجر الدلالة وتتشظى وتنشطر، فالدال منشطر بين مدلولين حاضرين في نفس الوقت متناقضين ولا يغلب أحدهما على الآخر، مثلا كلمة حجاب تعني الكشف والستر

في الآن نفسه.إذ "يحقق الاختلاف التعدد، وفي التعدد نفي للمحدود وإثبات "للمطلق البعيد المرجأ؛ أي استمرار إرجاء الدوال في مدلولاتها ويستمر معها القارئ بدوره في هدم النص وإنتاجه مع كل قراءة جديدة، وبالتالي جعل التفكيكيون مسيرة الخطاب مسيرة شاقة طويلة غير منتهية، وأصبح المعنى عندهم في رحلة غياب مستمر ، لا يعرف محطة يتوقف عندها، ما بجعل المعاني غير ثابتة وغير مستقرة، معان مؤجلة ضمن نظام الاختلاف" [47]، ومنه فالاختلاف في أبسط تعريفاته هو دال في سيرورة لم يتموضع ولم يتمركز على مدلول بعد.

2 – علم الكتابة: Grammatologie

تعتبر مقولة الكتابة بداية تأسيس وتحديث فكري، يقلب ذلك التدرج التقليدي من أفضلية الكلام على الكتابة، الذي سُقِّف وأُغلق من طرف دي سوسير كرؤية أخيرة ،رُسخت بفعل ذلك التفكير الكلاسيكي الثنائي، حيث يركز على الكلام رغم إشارته عرضيا إلى الكتابة كأصل، وأن الكلام (الصوت) هو كتابة بشكل أو بآخر، وهنا يجترح مقولة أساسية "لاشيء يوجد خارج النص"[48]، وتعني أنه لا يوجد معنى خارج المكتوب (وهي فكرة مستوحاة من الصوفية اليهودية واهتمامهم بالنص المكتوب التوراة)

لقد عمل دريدا على "ترسيخ مفهوم الكتابة، والثورة على مفاهيم الكلام والصوت، داعيا إلى إقامة مكتوب الغياب على أنقاض منطوق الحضور من خلال الدعوة إلى كتابة خالصة تقتل الكلام وتحل محله، لأن موت الكلام هو أفق اللغة وأصلها"[49]، بهذه الفكرة عمد دريدا إلى تقويض ذلك التمركز اللوغوسي الذي اشتغل لآلاف السنين على العناية بالكلام على حساب الكتابة. هذه الأخيرة التي جعل منها "موضوعا لعلم جديد يتناول معالجة الحروف الأبجدية، التقطيع، القراءة والكتابة، ابتغاء خلخلة كل ما يلحق مفهوم وقواعد العلمية باللاهوت الأنطولوجي، وبالمركزية العقلية والصوتية ومنه أطلق على هذا العلم مصطلح غراماتولوجيا الذي جعل منه عنوانا لكتابه، (عن علم الكتابة) أو عن الغراماتولوجيا الصادر عام 1967" [50] ، ويأتي الباحث بسام قطوس بتوضيح أكثر لهذه الفكرة وتعقيبا على فهم دريدا بقوله: "ليست الكتابة وعاء لشحن وحدات معدة سلفا ،وإنما هي صيغة لإنتاج هذه الوحدات وابتكارها، ومن ثم يصبح لدينا نوعان من الكتابة. الأول: كتابة تتكئ على التمركز حول العقل وهي التي تسمى الكلمة كأداة صوتية، وهدفها توصيل الكلمة المنطوقة، والثاني الكلمة المعتمدة على النحوية أو

كتابة ما بعد البنيوية ،وهي ما يؤسس العملية الأولية التي تنتج اللغة. والكتابة بهذا المفهوم تسبق حتى اللغة، وتكون اللغة نفسها تولدا ينتج عن النص، وبذا تدخل الكتابة في محاورة مع اللغة، فتظهر سابقة علي اللغة ومتجاوزة لها، فهي تستوعب اللغة وتأتي كخلفية لها بدلا من كونها إفصاحا ثانويا متأخرا، وهذا هو البعد الخلاق الذي يريد دريدا منحه للغة "[51] وهذا هو وجه الإبداع الذي يريد دريدا إثباته من خلال محاولة ترسيخ هذا الوعي أو الفهم التفكيكي.

3 – التناص: Intertexte

من مقولات التفكيك أيضا مقولة التناص، فقد "ألغى التفكيكيون ومعهم السيميائيون مبدأ استقلالية النص ،فما دام كل نص محتلا احتلالا دائما لا مفرّ منه مادام يتحرك ضمن معطى لغوي موروث وسابق لوجوده أصلا، ويشتغل في مناخ ثقافي ومعرفي مهيمنين، فكل كتابة – إذن – هي تأسيس على أنقاض كتابة أخرى بشكل أو بآخر أو قل أنها خلاصات لكتابات أخرى سابقة لها "[52]

إن التناص تقنية من تقنيات الكتابة التي يلجأ إليها المؤلف، إما لإكمال نقص أو عجز فكري أو لغوي، وإما بهدف مقصود هو نقل القارئ من زمان لآخر ومن مكان لآخر بغية زيادة لهفته وتعطشه لاستقاء المعنى الذي يتزايد ويتعدد بفعل ذلك الانتقال "[53]

وبما أن التناص في أبسط تعريفاته هو لوحة فسيفسائية تتشكل من نصوص عديدة ومختلفة،"يسعى القارئ إلى فك الارتباط بين هذه النصوص من حيث المبنى والمعنى، وهو ما يؤكده رولان بارث أن النص مصنوع من كتابات مضاعفة وهو نتيجة لثقافات متعددة تدخل كلها في حوار ومحاكاة ساخرة وتعارض، ولكن ثمة مكان تجتمع فيه هذه التعددية، وهذا المكان ليس الكتاب كما قيل إنه القارئ، وفي هذا تأكيد شديد على دور القارئ في تحديد دلالات النص، وأحد الشروط الواجب توافرها في القارئ النموذجي وهو امتلاكه خلفية موسوعية يستطيع من خلالها تفسير النصوص وحلولها في سياقات أخرى. إن خروج النص من زمان ومكان وتجليه في نسق جديد له عند دعاة التفكيك خروج عن المركزية ،التي طالما رفضوها وذلك بهدم حدود النص اللغوية و الفكرية ،وبعد تفجير النص المقروء الى شظايا تتولد عنها دلالات جديدة في سياق آخر خاص، عن طريق اللعب الحر للمدلولات والاختلاف الذي يميز كل واحدة عن الاخرى"[54]

نفهم من هذا الكلام أن التفكيك يجترح هذه المقولة (التناص) التي تمثل تقنية في الكتابة والقراءة ،من حيث أنها تفاعل وحوار بين النصوص، يستغلها القارئ عن طريق مبدأ اللعب الحر والمراوغة في البحث عن المعنى اللانهائي الذي يصل بها إلى ممكن الإبداع ،هذا الأخير الذي يتحقق بوصول القارئ إلى أغوار الكاتب، وخصوصيات قراءاته وخلفياته والغوص في نسيج كتاباته وبناها الثقافية التي تحيل دائما إلى أكثر من ثقافة وأكثر من قراءة وأكثر من كتابة، ومن ثمة يصبح نصه آثارا وتشكيلات تفاعلية لنصوص مقروءة سابقا يحاول هدمها وتعريتها وكشف ما أضمرته طويلا ، بتقويض ذلك النسيج المتلازم لتصبح قراءته وقراءات غيره دائما في إرجاء قراءات ومعان أخرى ،وهذا مكمن التميز والإبداع عند التفكيكيين.

4 – الانتشار التشتيت التقويض:(Dissémination)

يشير هذا المصطلح في الفرنسية إلى دلالتين "إحداهما النثر والبذر والزرع نسبة إلى المعنى اللاتيني وما يحمله من معنى إنتاجي، والثانية على التشتيت والتوزيع والتبديد والبعثرة، وبهذا المحمول المعجمي دخلت الكلمة قاموس النقد الأدبي، لتستقر مصطلحا تفكيكيا مناهضا للامركزية المعنى وأحاديته ونهائيته" [55]

ومن ثم فالتشتيت أو الانتشار او التشظي كما يطلقه البعض كمصطلح هو "تكاثر المعنى وانتشاره بطريقة يصعب ضبطها والتحكم بها ، وهو ما تؤكده مقولة (اللعب الحر) الذي تمثل حركة مستمرة تبعث المتعة وتثير عدم الاستقرار والثبات. ويأخذ المصطلح بعدا خاصا عند دريدا الذي يركز على فيضان المعنى وتفسخه؛ أي فائض المعنى وزيادته المفرطة على ما يفترض انه يعني ، وهو ما يوضحه أكثر في كتابه الانتشار الصادر عام 1972 "[56] ،و بمعنى اخر يرادفه "يرفض التفكيكوحدة المعنى واكتمال الدلالة و يستبدل بهما الانتشار،حيث لا يوجد معنى ثابتأو مكتمل،و حيث يؤدي اللعب المستمر للمدلولات الى انتشار المعنى و انفجاره"[57].

4 – الأثر: Trace

يعد الأثر أحد المقولات الأساسية التي يرتكز عليها التفكيك، "وقد أورده دريدا على أساس أنه أصل الأصل (...)فهو الاختلاف الذي يفتح الظهور والدلالة، مادام الاختلاف هو الأثر الخالص ،ولأن المعنى اللغوي للأثر لا يكاد يخرج عن الشاهد الدال على بقاء الشيء الغائب وشروعه بالإمحاء ،فإن بنية العلامة تتوقف في نظر دريدا على أثر ذلك الآخر الذي هو غائب

(والكلمة الفرنسية توحي بعدة معان منها: مضمار، مسلك، بصمة رجل، بصمة)، وبالطبع لا يمكن الحصول على هذا الآخر في وجود تام أو كينونة تامة، وهذه العملية أشبه بمحاولة الجواب على سؤال طفل أو البحث عن معنى كلمة في المعجم، حيث يؤدي كل دال إلى دال آخر إلى ما لا نهاية له "[58]

وفي تعريف آخر أدق :"الأثر هو امّحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته وهكذا يكون الأثر قناة للارتباط بسابق النصوص والعلامات والتيه في علامات أخرى لاحقة"[59]، ومنه فالأثر ثورة على الحضور، لأنه محو للحاضر واستحضار للغائب.

5 – الحضور والغياب:

يعد الحضور والغياب أيضا من الأسس التي انبنى عليها التفكيك، حيث أن دريدا ضرب الميثافيزيقا الغربية من الداخل، وقلب جميع التراتبيات، ولغى كل التعارضات؛ أي (الحضور ضد الغياب)، فحسب دريدا الحضور لا يكون في ذاته، وإنما هو حضور وغياب في نفس الوقت؛ وهو ما تفسره الفكرة التالية أن ثمة وحدات تحضر لغياب وحدات في نفس الوقت، وهذا ما يؤكد انبناء التفكيك على التقويض والبعثرة وآلية تشتيت المعنى ، إذ أن "العلامات المكتوبة تكمل ما تتركه العلامات المنطوقة من نقص وفراغات وهنا تعمل ثنائية الحضور والغياب عملها لانفتاح الدلالة اللانهائية وتحقيق المعنى الناقص" [60]، ثم إن دريدا بواسطة هذه الثنائية قرأ نصوص روسو ليعبّر عن العلاقة بين الكتابة والكلام وهو ما اشتقه من مصطلح (تكملة).

النقد الموجه للتفكيك:

وجهت عدة انتقادات لهذه الإستراتيجية التي لا ننكر الانبهار والتلقي الواسع إثر ظهورها وانتشار مقولاتها، التي سرعان ما كشفت عن قصورها وإخفاقها في بعض الأمور التي عدت هنات خطيرة على مستوى النقد ككل. (النظري والإجرائي).

ودريدا نفسه انتقد هذه الإستراتيجية ،"فهو الذي أقر بمبدأ اللعب الحر للعلامة والذي يتيح لها انفتاحا وانعتاقا كبيرين على معاني لا حصر لها، وهو ما عبر عنه دريدا بتعدد القراءات. هذا التعدد الذي وصفه في نهاية المطاف بأنه عرضه للتفكيك حيث وصف جل قراءاته لأي نص كان أنها إساءة قراءة "[61]

إن هذا الفهم التي تتحول فيه قراءة أي نص إلى إساءة قراءة حسب دريدا ومؤيديه، هو في الحقيقة أمر يقودنا إلى "إشكالية عدم دقة المنهج، حتى لو اعتقد منظرو التفكيك بأن التفكيك ليس منهجا – حتى وإن كنا نعلم — أن اعتراف دريدا بأنّ التفكيك ليس منهجا، هدفه منح مزيد من الحرية للقارئ، وعدم رغبته في احتواء التفكيك أو تدجينه، ناهيك بأن تصورا كهذا يفتح المجال لكل الاحتمالات القرائية، وكأنه يدعو إلى نقض النص نفسه وإلغاء سلطته. ومن ثم فسلطة القراءة ملغاة لا محالة "[62] ، وانطلاقا من هذا الفهم أيضا وبرفض دريدا تقديم قار للتفكيكية "بنفيه مفهوم النقد ،النظرية ، التحليل، المنهج ،هو في الأساس "امتثال ينأى عن إضفاء صفة الموصوف المنهجي على هذه الإستراتيجية " [63]

كذلك مقولة اللعب الحرّ والمراوغة أو مبدأ المطاردة ،الذي "يجعل القارئ دائما في ضياع وتشتت وسط دوامة المدلولات اللانهائية، الشيء الذي قد يجعله يصرف النظر عن القراءة تماما (...) كما أن التشتت والنسف والتقويض والتدمير والتفتيت دليل على أن كل ناقد يتعامل مع التفكيك حسب ما يراه هو وليس كما يجب أن ينظر إليه، معنى ذلك أنه لا توجد قواعد وأسس واضحة ومحددة ينتهجها الدارس أثناء الدراسة ليقيم مقارنة تفكيكية "[64]

الحقيقة مآخذ كثيرة منيت بها التفكيكية خصوصا أنها لم تستقر على هيئة واضحة تشتغل وفقها فهي "تقوم على مواقف استعراضية تصادف هوى من جانب المثقف الأمريكي صاحب المزاج الذاتي الخاص، (كالناقد ميللر الذي شبه بالثور الهائج وسط متجر لبيع الخزف فهو يدمر كل شيء)، أكثر مما يقوم على مرتكزات نظرية يسهل تلقفها وتطبيقها (...) كما يشبهها آخرون بالموضة التي تظهر في الوقت المناسب لإشباع حاجة مرتبطة بالذكاء التسويقي ليس غير. ومما ساعد رواج هذا التفكيك إجادة دعاته لفنون البيع والتغليف التي تمكنه من بيع بضاعة قديمة سبق تداولها في أشكال جديدة براقة باستخدام مصطلحات غير واضحة لكنها براقة تبهر القارئ وتقنعه بأن ما يقال له استثنائي وغير عادي "[65]

وغيرها من المآخذ الهنات التي غاص فيها روادها الذين أكثر ما ابتعدوا عنه هو الابتعاد عن فكرة الجمال في أي شيء.كذلك في سعي دريدا إلى تفكيك المتعاليات التي سماها باللاهوت، يصنع هو الآخر لنفسه لاهوتا جديدا من خلال غلق النص في لعبة داخلية من التأويلات اللانهائية وقد استوحى هذا العمل مما يقوم به المتصوفة اليهود في تأويلاتهم الباطنية.

خاتمة

لقد شكلت هذه الاستراتيجية مشروعا لمرحلة حاسمة من تاريخ الفكر الغربي وهي مرحلة ما بعد الحداثة الذي يرفض تماما الثبات والرتابة،لذا يعتبر التفكيك بمقولاته التي زعزت الأرضية الصلبة التي انبنى عليها العقل الغربي منذ الاف السنين ،خزانا فلسفيا معينا لكثير من التوجهات النقدية التي أخذت من أفكاره كالنقد الثقافي أو الدراسات الثقافية .....و طوعتها بما يتلائم وهذه الدراسات .

الهوامش:

1-جاك دريدا: الكتابة و الاختلاف، تر:كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، ط2000،1،ص.63

2- بسام قطوس:استراتيجيات القراءة-التأصيل و الاجراء النقدي-، دار الكندي للنشر،اربد/ الأردن،1998، ص.23

3-بسام قطوس:المدخل الى مناهج النقد المعاصر،دار الوفاءلدنيا الطباعة،الإسكندرية،2006 ،ص.147

4- بسام طقوس:استراتيجيات القراءة ،ص.23

5- يوسف وغليسي:مناهج النقد الادبي- مفاهيمها و اسسها، تاريخها وروادها، و تطبيقاتها العربية، جسور للنشر و التوزيع،الجزائر،ط3، 2010 ،ص.173

6- يوسف وغليسي: مناهج النقد الادبي ،ص.173

7- بسام قطوس: :استراتيجيات القراءة ،ص.23

8- يوسف وغليسي:مناهج النقد الادبي ،ص175.

9- يوسف وغليسي:إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009 ،ص.341

10- سامية راجح،بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي في الكتابات النقدية المعاصرة، عالم الكتب الحديث ،اربد،ط2009،1،ص93-.94

11- سامية راجح،بسير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.98

12- حميد لحميداني :الفكر النقدي الادبي المعاصر-مناهج و نظريات ومواقف-،مطبعة أنفو-يرانت، الرباط، ط3، 2014 ،ص.193

13 /2017/04 http://ar.wikipedia.org/wiki/13- مثالية.

14- بسام قطوس:المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ،ص.145

15- بسام قطوس:المدخل إلى مناهج النقد المعاصر،ص.146

16- بسام قطوس:المدخل إلى مناهج النقد المعاصر،ص.147
17- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.12
18- سامية راجح ، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي،ص.12
19- سامية راجح، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي، ص.13
20- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.17
21- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.16
22- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.18
23- سامية راجح ، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي،ص.20
24- سامية راجح ، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي،ص.22
25- سامية راجح ، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي،ص22.
26- مجموعة من الكتاب :البنيوية و التفكيك -مداخل نقدية-، تر: حسام نايل ،أزمنة للنشر و التوزيع،ط1، 2007 ،ص.180
27-جاك دريدا :الكتابة و الاختلاف ،ص.47
28- مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك ، ص180-.181
29- مجموعة من الكتاب: البنيوية والتفكيك، ص.181
30-أحمد عبد الحليم عطية: مابعد الحداثة والتفكيك_مقالات فلسفية-، دار الثقافة العربية ، القاهرة،2008 ، ص204.
31- مجموعة من الكتاب :البنيوية و التفكيك،ص.183
32-جاك دريدا :الكتابة والاختلاف ،ص.47
33- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.24
34- مادان ساروب : دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،تر:خميسي بوغرارة ،منشورات مخبر الترجمة في الادب واللسانيات ،جامعة منتوري ،قسنطينة،2003 ،ص.62
35- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.25
36- مادان ساروب : دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.65
37- مادان ساروب : دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.56
38- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.27
39- مادان ساروب: دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.61
40- مادان ساروب: دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.58
41- مادان ساروب: دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.60

42- عبد الغني بارة:إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر –مقاربة حوارية في الأصول المعرفية-،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مصر ،2005،ص109.
43- مادان ساروب: دليل تمهيدي الى ما بعد البنيوية و ما بعد الحداثة ،ص.57
44-يوسف وغليسي :إشكالية المصطلح النقدي،ص.360
45- رامان سلدن :النظرية الأدبية المعاصرة،تر :جابر عصفور ،دار قباء للطباعة والنشر ،القاهرة،1998 ، ص.136
46- يوسف وغليسي :إشكالية المصطلح النقدي ،ص.360
47- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص62-.65
48- أحمد عبد الحليم عطية:جاك دريدا والتفكيك،دار الفارابي،بيروت-لبنان،ط2010،1،ص165.
49-يوسف وغليسي:إشكالية المصطلح النقدي،ص.368
50-يوسف وغليسي:إشكالية المصطلح النقدي،ص.369
51-بسام قطوس:استراتيجيات القراءة ،ص31-.32
52- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.69
53- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.71
54- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص74-.75
55-يوسف وغلسي:إشكالية المصطلح النقدي ،ص377.
56- سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الادبي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط2000،1 ، ص 119-.120
57-يوسف وغليسي :إشكالية المصطلح النقدي ،ص.365
58- عبد العزيز حمودة :المرايا المحدبة-من البنيوية الى التفكيك- ،عالم المعرفة، الكويت ،1998 ،ص.340
59-جاك دريدا :الكتابة والاختلاف ،ص.27
60- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي ،ص.84
61- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.108
62- بسام قطوس :استراتيجيات القراءة ،ص.34
63- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص.108
64- سامية راجح ، بشير تاوريت :فلسفة النقد التفكيكي،ص109-.110
65- سامية راجح ، بشير تاوريت: فلسفة النقد التفكيكي،ص110-112.